مقدمة

مهلا قارئى العزيز ، فإنى أرى آثار الدهشة قد استولت عليك ، حينما طالعت غلاف هذا الكتاب . لعلك يا عزيزى تتساءل عن زميلى الفاضل الدكتور عبد العزيز عبد المجيد ، ذلك الباحث المدقق الذى سعدت برفقته فى جولتى العلمية بالجزء الأول من هذا الكتاب .

حقاً لقد كانت صحبة كريمة ، يزينها سمو المقصد ، ونبل الغاية . وكم كنت أود أن أراه بجانبى يشاطرنى ذلك المجهود المتواضع ، ويستأنف معى ذلك الشوط الثانى فى رحلتنا النافعة والممتعة فى وقت واحد . ولكن الهجرة فى سبيل إحياء العلم ، والنهوض بالمعرفة ، بعض ما يهدف إليه العلماء المكافحون . فلأحىّ فيه صدق جهاده ، ولأبعث إليه من وراء البحار ، رقيق تحياتى ، وعظيم تقديرى .

ولأعد إليك أيها القارئ — وقد وقفت على بداية القصة ، وعرفت أن كتابنا هذا تتمة لكتاب سابق — لأقول لك : إن حرصنا على توثيق الصلة بين كليهما أدانا إلى أن نعود فى مستهل هذا الكتاب على مؤخر الكتاب الأول عوداً يتسم بشىء من العجلة والأناة معاً ، فهو يبدأ بلمحة خاطفة عن التربية القديمة وقادتها الذين مازالت التربية الحديثة تكن لهم ما يكنه التلميذ لأستاذه من مهابة وإجلال . ثم يسلمك إلى وقفات طويلة عند بعض الطرق الحديثة التى حظيت منا بالشرح والنقد والتحليل . وليكن معلوماً أننا لا نهدف من وراء هذا إلى مجرد سرد الحقائق العلمية ، ولكننا نأمل أن تكون تلك الحقائق وحياً للمدرس الناشئ ، يستلهمها كلما عنّ له أن يُعدل خطته ، أو أن يضفى عليها لوناً من الجدة والطرافة .

ولقد وجهنا اهتمامنا — مستجيبين للاتجاه الحديث إلى العناية بالطفل واتخاذه محور الارتكاز فى عملية التربية — إلى الحث على دراسة التلميذ دراسة

شاملة ، والتفطن لما يجول بذهنه من خواطر ، وما يجيش فى قرارة نفسه من مشاعر ، وما يعترض سبيل حياته من مشاكل . فإن ذلك كفيل بسلامة التوجيه ، وحسن الرعاية وغير ذلك مما لا بد منه ، لإنهاض مجتمع صالح ، على أساس من المبادئ الديمقراطية العادلة .

ومن هنا كنا حريصين — حينما انتقلنا إلى دراسة المنهج — على أن نتناول بالتمحيص والعلاج مشكلة العلاقة بين الطفل والمنهج ، محاولين بقدر استطاعتنا التوفيق بين طرفى هذه المشكلة . على أننا لم ننس حظ القارئ ، ولا حق العلم ، فقد عرضنا المنهج فى ضوء المذاهب الفلسفية المختلفة متناولين الأسس التى يبنى عليها ، والاعتبارات التى ينبغى أن تراعى عند وضعه ، والأمور التى يتوقف عليها النجاح فى تطبيقه ، ثم لم يكن من الصعب علينا بعد ذلك كله أن نبرز مواطن الضعف المختلفة فى مناهجنا الحالية بوجه عام . ولم يفتنا أن نفرد جانباً للمادة التى يتكون منها المنهج ، نزيد القارئ فيه إلماماً بالعلاقة بين المواد الثقافية والمواد المهنية ، وما يرميان إليه من تربية حرة وتوجيه مهنى . وأدلينا برأينا الخاص فى حل تلك المشكلة ، وعسى أن نكون قد أصبنا التوفيق بين طرفيها .

على أننا لا نبغى من وراء إعلان آرائنا الخاصة أن نوسع دائرة الخلاف العلمى ، وأن ننتحى فيها جانباً منعزلا نطل منه على قرائنا ، ولكن هدفنا الأسمى هو أن ننتفع بخبرة سابقينا ، وأن نتعاون مع معاصرينا على عرض الثروة العلمية فى خير معرض ، وربما لقينا فى سبيل هذا بعض الصعوبات ، كما حدث عندما عرضنا للمشكلة الخلقية ، وأعلنا رأينا الخاص فى تحديد مدلول الأخلاق ، وما حملنا على ذلك إلا إشفاقنا على القارئ من أن يتخبط وراء تلك الغاية فى المراجع المختلفة فلا يجد إليها سبيلا . ولم نشأ أن نحرمه أثناء عرضنا لمستويات السلوك الخلقى من ذكر الأمثلة المختلفة التى تكشف له عن هذه المستويات . ولقد أخذنا بيده فى رفق وهوادة إلى مدارج الماضى وأفنية الحاضر حيث يستعرض قادة التربية قدماءهم ومحدثيهم ليقف على نظرة

كل منهم إلى أهمية الغرض الخلقى ، قبل أن نواجه بوسائل التربية الخلقية المباشرة وغير المباشرة ، وقبل أن نطوف به فى ميادين الأخلاق ، ونتردد بين البيت والمدرسة مبينين أثرهما فى تنشئة الطفل على الأخلاق الفاضلة . ولكننا أخيراً نعتذر إلى القارئ إذا كنا قد صدمناه بالحقيقة المرة فما كان لنا أن ننكر أنه إذا كانت هنالك محنة قاسية يتلظى بنارها ذلك المجتمع ، فهى تلك المحنة الأخلاقية التى تتطلب العلاج الناجز السريع .

ولم يكن لنا أن نقف فى التربية الخلقية عند هذا الحد ، ونصرف النظر عن موضوع طالما شغل أذهان المربين هو موضوع الحرية والنظام . وأى بحث أجدى على العملية التربوية من أن نكشف اللثام عن السر الذى تكمن وراءه طاعة الأطفال للمدرسين ، وأن ندرس أطوار الإدارة النظامية فى المدارس على مر الدهور ، وأن نحدد الموقف الذى ينبغى أن نتخذه من هذه الأدوات جميعاً ، مارين بنظرية العقاب ، معلنين أنه لا ينبغى أن يكون عقاباً سلبياً تقف الغاية منه عند حد الجزاء والانتقام ، ولكن يجب أن يكون إيجابياً يؤدى رسالته فى إصلاح الطفل وتقويمه .

وبمثل الصعوبة التى صادفتنا فى تحديد مدلول الأخلاق ، حاولنا تحديد مدلول الجمال ، وكفينا القارئ عناء الحيرة أمام الآراء المتضاربة لمختلف رجال التربية الذين تصدوا لبحث هذا الموضوع . وقد اهتممنا بالتقدير الجمالى ، وانتقلنا إلى ميادين التربية الجمالية ممثلة فى البيت والمدرسة ، ثم أعقبنا ذلك بعرض سريع لموضوعات الدراسة المختلفة ذات الأثر البعيد فى خلق الشغف بالجمال ، وتنمية الحاسة الجمالية عند الأطفال .

ثم انتقلنا إلى مشكلة الامتحانات التى قتلها بحثاً رجال التربية الحديثة ، فكان علينا أن نبذل أقصى الجهد فى أن نعرض على القارئ ثقافة جديدة تشغله عما علق بذهنه من آراء ترددت فى ثنايا التقارير والمحاضرات التى عرضت لهذا الموضوع . كما أوضحنا له المشكلة فى ضوء المذاهب الفلسفية المختلفة ، ووضعنا يده على القول الفصل فى هذا الموضوع ، وهو أن الامتحانات إن لم

تكن خيراً لا غنى عنه ، فهى شر لا بد منه .

ورحمة بالطفل ، وادخاراً لجهود المربين تساءلنا عما يدفعه إلى العمل ، أهو سوقه وإرغامه أم هو إثارة اهتمامه وجذب ميوله ؟ ولقد أدانا ذلك التساؤل إلى عرض وجهتين من النظر مختلفتين تمام الاختلاف ، قائمتين على الحجج والأسانيد . ولقد هدتنا دراستنا إلى أن كلتيهما قد تناولتا الموضوع من زاوية واحدة ، بينما كان من الممكن أن تلتقيا فى منتصف الطريق .

ومن ذلك العرض السريع لخطة الكتاب يتجلى واضحاً للقارئ أننا قد رفعناه على دعامتين : إحداهما فلسفية ، والأخرى سيكلوجية . أو بعبارة أخرى ، ألقينا على الحاضر ضوءاً من الماضى ، ورأبنا بالجديد صدع القديم . ولم نقف بذلك عند مجرد العرض ، ولكننا عرجنا فى كل موضوع على مواطن الضعف الكامنة فى نظم التربية والتعليم ، وتناولناها بالنقد البرىء الذى لا غاية له إلا الصالح العام .

على أننا نعلن أن صدورنا جد رحيبة لمثل هذا النقد ، فنحن لا ندعى أننا قد أتينا على كل ما ينتظر للعلم من تقدم ونجاح ، ولكنها حلقة وصلناها بسلسلة البحوث العلمية ، ولا يضيرنا — بل يهمنا — أن يتقدم غيرنا — مشكوراً — ليزيدها قوة وتماسكاً حتى يتاح لباحث آخر أن يصل بها حلقة جديدة متينة ، وبمثل ذلك يتمكن المربون من تأدية رسالتهم ، وإنهاض حركتهم على هدى من العلم والعرفان .

ويسرنى الآن ، وقد قدمت كتابى إلى القراء ، أن أبادر فأتقدم بجزيل شكرى إلى أبنائى الذين أبوا إلا أن يضربوا لى مثلا حياً على إخلاصهم ووفائهم ، وأن يبذلوا — طيبة نفوسهم — جانباً من وقتهم وجهودهم فى سبيل إخراج هذا الكتاب . وأخص بالشكر الأستاذ نصر زيدان المدرس بالمدرسة التوفيقية ، والأستاذ محمد إسماعيل عبده المعيد بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، وأتمنى أن يهيئ الله لهما مستقبلا سعيداً وأن يجزيهما عنى خير الجزاء .

٢٣ رجب ١٣٧٠
٧ أبريل ١٩٥١

صالح عبد العزيز

تمهيد

إن فن التربية لن يصل إلى حالة الوضوح التام بدون مساعدة الفلسفة فهناك علاقة متبادلة بين الاثنين وأحدهما بدون الآخر ناقص، ولا يمكن الانتفاع به، هذا وإذا لم تبن التربية ودقائقها على أسس نفسية وفلسفية لكانت موضوعاً مملا حتى على القائمين بالتربية أنفسهم، ولكانت فروع التربية كالتنظيم الداخلى للمدارس والمنهاج مثلا، أكثر ملالة وسآمة، ولما خرجت التربية عن أن تكون موضوعاً ميكانيكياً صرفاً، لا يتجاوز معلومات جافة كجداول الضرب تستظهر قبل الامتحان، ولكانت أقرب ما تكون إلى مجموعة من المعلومات المبعثرة المهوشة لا رباط فيها ولا حياة.

وليس هذا الكتاب تاريخاً لتطور طرق التربية لكنه يسرد نواحى التربية القديمة فى مدارسها الماضية، فيستعرض أسلوبها وينقد نظرتها إلى الطفل. تلك النظرة التى لم تعد تراعى من حاجاته إلا حيزاً من الفراغ حجمه مائة متر مكعب ومساحته عشرون متراً مربعاً، ثم يعود لينظر مقارناً بها مدرستنا الحديثة بأسسها القويمة، وأسلوبها الجديد، فيذكر المدرس والطالب بجمود التربية المنصرمة، وينبههما إلى حكم الأجيال القادمة علينا، ذلك الحكم الذى يشبه حكمنا على السالفين، ما لم نحفز الهمم. ونشحذ العزائم فى تقويم أسلوبنا التربوى، وما لم ندفع التربية فى مدارسنا دفعاً إلى الأمام.

فإلى طلاب البحث فى علم التربية المبنى على أسس فلسفية ونفسية، ومن يهمهم أمر التربية عموماً . . .

إلى هؤلاء جميعاً نقدم هذا الكتاب، فإذا أتيح له أن ينير أمام بصائرهم مناحى هذه التربية الحديثة، فقد حقق ما وضع لأجله.

تتناول التربية الأشخاص فتبدأ بهم من حداثة عهدهم بالحياة، أى من طفولتهم إلى أن تخرجهم رجالا مربين.

obeikandi.com

فمن هو ذلك الرجل المربّى الذى تهدف التربية إلى تكوينه ؟

ذلك الرجل هو الذى أتيح له أن يقرأ ويفكر ، ويعرف أكثر ما يمكن من الموضوعات والمعلومات الملائمة لسنه وبيئته ، بحيث لا يعوزه الحديث فى تلك الموضوعات عندما تطرح أمامه فى مجتمع ما ، فهو على دراية بمواطن الحديث يعرف لكل مجال مقاله ، دون تلعثم أو ارتباك ، لأنه واثق من نفسه وعلى بينة من قدرها .

هو ذلك الرجل القوى الملاحظة السريع الخاطر الثاقب التفكير ، الذى يقرأ أفكار من حوله وينفذ إلى أعماق نفوسهم ويتحسس مشاعرهم ويعامل كلا منهم بما تقضى به نظرته الفاحصة وهو دقيق فى أحكامه لا يكيل المدح ، ولا يقذع فى الذم .

هو ذلك الرجل الذى يسبح بفكره فى حقب الزمان والمكان ، القادر على حكم نفسه ، وجعلها من المرونة بحيث تتكيف مع الأوضاع بكل سهولة فلا يصدمه طارئ ولا يذهله عارض مفاجئ ، ولا يثنيه عن شق طريقه فرقة أو بعاد عن أهله وذويه .

وأخيراً هو ذلك الرجل الذى إن آمن بحق بذل فى سبيل تحقيقه النفس والنفيس .

هو ذلك الرجل الشجاع الذى يجعل وطنه كل شىء أمامه ، يحمل روحه على كفه من أجله ، ويهتف به من أعماق نفسه متمثلا أمامه هذا القول الرائع :

إن بح صوتى فهـــذا دمى يخط على الأرض يحيا الوطن

هو ذلك الثابت الجأش الذى لا تنال منه الكوارث مهما تتابعت ولا الحوادث مهما توالت . . لأنه على علم بقوانين الحياة المتقلبة المضطربة .

هو ذلك المتواضع المترفع عن المظاهر الذى لا يرى نفسه مشجباً لأحدث الأزياء لأنه عقل قبل أن يكون جسما — حتى بعد موته فهو لا يوصى بأن تنقش على قبره آيات المدح والثناء ، مادام مصيرها الفناء .

ولنعد إلى الطفل الذى ستتعهده بالتربية لنكون منه هذا الرجل المربى ، ولنقارن نظرتنا إليه بنظرة الأجيال السالفة .

فى عهدنا هذا تعتبر السعادة والمرح هما المميز الواضح لعهد الطفولة ولا شك أن هذا يتعارض بشكل جاد مع الحال منذ ستين عاماً تقريباً ، بل إننا لا نكاد اليوم نرى فى طفولتنا من اللهو والمرح ، ما يهيئ الطفل لحياة مستقبله ، يرفرف عليها الاطمئنان ، وتشيع فيها الثقة بالنفس .

لهذا كان علينا أن نتوقع لأطفالنا صحة جيدة ، ومرحاً دائماً ، فإن لم يكن أمرهم كذلك ، وجب علينا أن نبحث عن الأسباب والعلل ونقف منها موقفاً إيجابياً يكفل معالجتها ، ولنترك ظهرياً تلك الأيام التى كنا نقتصر فيها على أن نشيع حول فراش الطفل المريض جواً من الشفقة والحنان مكتفين بهذا الموقف السلبى ، حتى يقضى نحبه ، فقد مضت تلك الأيام بلا رجعة .

وفى حفلات الرقص التى كانت تقيمها سيدات القرن الماضى خير مثال على ذلك ، فقد كن يستعملن الضوء الأخضر ، حتى يبدون شاحبات كوسيلة للإغراء والفتنة وجذب الانتباه ، فى حين أنهن اليوم ولنفس الغرض يستعملن اللون الأحمر البرتقالى لأن الرجل الآن تبهره مظاهر الفتوة والحيوية والصحة .

وعلينا الآن وقد عرضنا الرسالة التى تجردنا لأدائها فى هذا الكتاب ، أن نخلص إلى تفصيلها ، بادئين بالنظم التربوية القديمة ، حتى يتسنى لنا فيما بعد أن نقارنها بما وصلت إليه التربية الحديثة من مبادئ وأساليب . .